

مصراع البغى

للاستاذ محمد سعيد العريان

قال الشيخ

افتاءهما يسا كان

طريقهما في بعض

أرباض الكوفة :

مل بنا يا بني عن

هذا الطريق :

فليس يطيب لي

بوي إذا وقعت

عيناي على أنقاض

تلك القاعة المهدمة :

كأنما يجثم وراء



كل حجر من أحجارها المتناثرة نحسنُ بتربُّص بكل عابر سبيل ...

قال الفتى منكراً : وى ! كأنك تزعم يا أبت أن في بعض

الجاد ما ينفع وما يضر ...

قال الشيخ وقد أخذ طريقاً آخر إلى الوجه الذي يقصده ،

عنهم من العلم ، وأنهم لم يكونوا أصحاب علم بالتوراة ، وأن ما

أوردته بثوب إسلامي لم يكن سوى أشباح ضعيفة لما ورد في

بعض الأماكن من أسفار التوراة . وأنه كان في الواقع نوعاً من

القصاص الشعبي الإسرائيلي الذي كان شائعاً بين يهود اليمن

والحجاز wolkstore وأنهم يهوديتهم هذه يختلفون كثيراً عن

يهود فلسطين مثلاً أو العراق . وأنهم حاولوا إدخال « اليهوديات »

في الإسلام وهو ما عرف فيما بعد باسم « الإسرائيليات » أو

« القصص الإسرائيلية »^(١) ، والتي حذر منها المفسرون . وأن

بعضهم تكلم على الخلفاء ؛ بينما كان يتظاهر بخلاف ذلك .

مصادر على

(١) Fleischer-Festschrift Morgenlandische forschung en
Leipzig 1875 s 298 Lidzbarski De Prophetica legenda
Arabica Leipzig 1893 s 39.

وقد أسند كفاً إلى كتف الفتى وكفاً إلى مصاه : إنما هو يا بني
ما قلت ، وإنه لا نافع ولا ضار إلا الله ؛ وأعوذ به من كفر
بعد إيمان ؛ ولكن ذكريات تتراعى لي من هذه الحربة كلما نالها
عيناي فتتجسد لي في النوم واليقظة صوراً جراء دامية ؛ لقد
تعمَّر أبوك طويلاً يا فتى ورأى ما لم تره ؛ ولعلك أن تعمَّر مثل
عمري فتتحدث إلى بنيك بما رأيت وما سمعت من أبناء هذه
القلمة المشثومة ...

استشرفت نفس الفتى إلى جديد يقصده عليه أبوه من أبناء الماضي ،
وإن أباه لراوية أخبار ومحدث تهفو النفوس إلى حديثه ويرهف
السمع ؛ ولكن الشيخ مما أوحى الزمان منه لم تكن به قوة على
حديث طويل وهو يعيش ؛ فلما بلغ داره وتخفف من ثيابه جلس
إلى وسادته ليستأنف حديثه إلى ولده عن تلك القلمة . قال :

لقد رأيتها يا بني منذ بضع وخمسين سنة ، وكنت يومئذ فتى
في مثل سنك ، والمسلمون حديثو عهد بهذا المصراع ، وأميرهم فيه
سعد بن أبي وقاص ، فلما مضى البلد وشرع طرائقه ونظم ديوانه
أمر أن تنشأ هذه القلمة وأخذها داراً للحكم ؛ وقد كان سعد
مستجاب الدعاء يا بني ؛ وكأني به حين حفر أساسها قد دعا الله أن
يجعلها عصمة للمسلمين من عدوهم ؛ ولو أنه اطلع على النيب
لكانت دعوته إلى الله أن يجعلها عصمة للمسلمين من شر أنفسهم ؛
إذن لارتدت عنها شهوات الباطلين وعصمت أهل هذا المصراع من أن
يسفك بعضهم دماء بعض كما عصمتهم من عدوهم ؛ فسا طرق
الكوفة عدو من أهل الشرك منذ مصراعها سعد وأنشأها بها
هذا الحصن أو سفك بها كافر دماً ؛ ولكن اتخذوها مَطْمَعَةً
يسفك بها بعضهم دماء بعض ... قال الشيخ :

في هذه القلمة يا بني ، شهدت رأس الحسين بعد أن قتله أهل
البنى دون الفرات شهيداً مظلوماً وحالوا بينه وبين الماء ، لا يشرب
من ظمأ ، ولا يجوز به إلى مأمن ، ولم يكفهم ما فعلوا به وبأهله
وولده ، ففصلوا رأسه عن جسده وحملوه إلى عبيد الله بن زياد
الدمعي ، فكأنما أراه الساعة الرأس الشريف بين يديه المخضبتين
بالدم لا يكاد يكتم فرحته بموته ؛ كأن قد ضمن به الخلود في الحياة
حين ضمن به الخلود في إمارته !

ثم حل الرأس إلى دمشق ليغايب يزيد بن معاوية نفساً بالنظر
إليه ويطمئن بالا باستقرار الأمر له .

هل رأى قط واحد من أهل الكوفة أو من أهل هذه

ابن الزبير في مسكة على أمل يأمله ، فلما خاب أمله ذاك زعم أنه شيعه على والتار لولده ، ايصل بذلك إلى مناواة الأمويين والزبيريين جميعاً ؛ فهدد مصعب لحربه بالجيش اللجب ، تشابهه قبائل و بطون و جماعة من أهل الرأي و طائفة من أولى البأس في الحرب ؛ والتقى الجيشان في معارك ، ودارت الدائرة على المختار فلجأ إلى دار الإمارة بالكوفة متمهما في طائفة قليلة من أصحابه لا قوة لهم على المقاومة ؛ وحصرهم جيش الزبيريين حتى لم يجدوا بداً من البروز لحربهم أو النجاة بأنفسهم ؛ ونالت المختار ضربة كانت فيها نفسه ، فاحتز رأسه وحمل إلى الأمير مصعب بن الزبير في قلعة الكوفة . وكما شهدت من قبل رأس الحسين ورأس ابن مرجانة بين يدي أمير القلعة ، شهدت رأس المختار ...

وكأنما يحس بنفسى وقتئذ هاجس وأنا أنظر إلى مصعب بن الزبير وبين يديه رأس المختار وتمثلت لي صورة غير التي تراها عيناى في تلك الساعة ؛ فكان الذى فى الطست ليس هو رأس المختار بن عبيد ، ولارأس ابن مرجانة ، ولارأس الحسين ؛ ولكنه رأس مصعب نفسه ؛ وكأن الأمير الجالس على الكرسي رجل آخر غيره ، ولكنه رجل لا أعرفه ، لأن عيني لم تقع عليه قط . هذا منظر تكرر على عيني ثلاث مرات ، في صورة واحدة ، ومكان واحد ، ولأسباب تكاد تتشابه ؛ فكأنما رأيت منظرأ رابعاً لم يره أحد بعد ، وكأن هاتفاً من وراء الغيب يهتف بصوت أكاد أحكى نبره : لكل باغ يوم ! ...

واستقرت هذه الصور الأربع في واعيى لا أكاد أغفل عنها طرفة عين ؛ أما ثلاث منها فأرأيتها رأى العين ووعيتها وعى اليقظة ؛ وأما الرابعة فكانت وهما تجسد حتى قارب أن يكون حقيقة مما يدرك بالحس ! قال الشيخ :

لست أدري يا بُنى أكانت هذه الصور الأربع في واعيى أنا وحدى أم كان غيرى معها ؛ ولكن الذى أرويه بقيتاً هو أن رجلاً واحداً من الذين شاركوا في هذه الحوادث الدامية لم تخطر على باله قط الصورة الرابعة ؛ ذلك هو مصعب بن الزبير نفسه ! وتواتت الأعوام بابني وهذه الصور تتراعى لي في يقظتى وفي منامى ، حتى جرمت على نفسى أن أجوز ذلك الطريق حتى لا تقع عيني على تلك القلعة المشئومة فتجد لي ذكريات وتبتم تلك الصور البغيضة إلى نفسى ...

القلعة رأس الحسين في الطست بين يدي عبيد الله ثم غابت هذه الصورة عن خياله ؟ ... قال الشيخ :

ومضت يا بُنى منذ ذلك اليوم سنوات ، ومضى يزيد إلى ربه بما حمل من أوزار الناس وأوزار نفسه ، وتماقب على عرش بنى أمية في الشام أمير بعد أمير ، وطن عبيد الله ابن مرجانة أن العيش قد طاب له ، وأحسبه قد نسي يوماً له بقلعة الكوفة وبين يديه رأس الحسين الشهيد ، ولكن الأقدار لا تغفل عن أهل البنى ؛ ولم ينس المؤمنون من شيعه بنى هاشم جنائياً بنى أمية وبنى سمية على عترة النبي المصطفى من خير خلقه ؛ فضت الدعوة إلى الشار لهم تنتقل من فم إلى فم وتتقاذفها الفلوات والأمصار حتى نهض لها المختار بن أبى عبيد يهتف في شيعه الحق : بالثارات الحسين !

واجتمعت له الجوع وتكتبت الكتائب ودانت لدعوته البلدان ؛ وخرج ابن زياد ليلقاه ، أو ليلقى حينه ؛ فالتقى بجيش المختار في أرض الموصل على شاطئ نهر خازر ؛ ونالته ضربة سيف باز قد نته نصفين ، فبداه في المشرق ورأسه في المغرب ، وكما حمل رأس الحسين من حيث قُتل على الفرات إلى قلعة الكوفة — حمل رأس عبيد الله من حيث هلك على شاطئ نهر خازر إلى قلعة الكوفة كذلك ...

وفي هذه القلعة يا بُنى ، شهدت للمرة الثانية رأساً في طست بين يدي أمير القلعة ؛ وكأني يومئذ بالمختار بن أبى عبيد إلى رأس ابن مرجانة بين يديه وهو في مجلسه ذاك من تلك القلعة وعلى شفثيه مثل تلك الابتسامة ! ...

ولعل كثيرين غيرى قد رأوا ما رأيت يومئذ وفي ذلك اليوم الآخر ، فانطابت في أنفسهم صورة الرأسين ومنظر الأميرين ؛ فمنهم من نسي صورة بصورة ومنظراً بمنظر ؛ ولكننى لم أنس ! قال الشيخ :

ومضت يا بُنى سنوات آخر ، وتقلب الأحوال بالناس ما تقلبت ، وحدثت أمور بعد أمور ؛ ولكن رجلاً من أصحاب الأمر لم ينس أن له ثاراً عند المختار بن أبى عبيد ؛ ذلك مصعب ابن الزبير يا بُنى ، أمير تلك الجهات من قبل أخيه عبد الله التامر بمكة ؛ فقد كان يرى المختار دعياً في شيعه على ، يتلصق بهم ليطلب لنفسه ملكاً وإمارة ؛ وقد سبقت له بيعة لعبد الله

ثم صمت الشيخ وأطرق ، ومرحت خواطر الفتى إلى واد بعيد .

وتعاقبت السنون ، ومات الشيخ ، وأبغ الفتى ثم اكتمل
وبرقت في قلوبهم شمرات بيض ؛ ونسى كل ما كان من حديث
أبيه ؛ ونسى أهل الكوفة ما مرّ بهم من أحداث وما وقع
في القلعة من حوادث ؛ ولكن أنقاض القلعة ظلت مذكورة
حيث كانت ...

(ومر الفتى ذات يوم بالمكان فتذكر ، ووقع في وهمه أن
شيئا ما سيحدث ...

(ومضت أيام ، وحدث شيء ...

من وراء أنقاض القلعة المهتمة بالكوفة بدأت تلامع الزحف
العباسي إلى دمشق ، لتخطيم عرش بني مروان !
وتنفس الفتى نفساً عميقاً حين بلغه النبأ ، وقال في ثقة
واطمئنان : آمنتُ بأن لكل باغ مصرعاً . . . !

محمد سعيد العربي

وكان عبد الملك بن مروان على عرش بني أمية في الشام ،
وقد تغافى أعداؤه ومناوئوه طائفة بعد طائفة وأهلك بعضهم بعضاً
فلم يبق نعمة من يخشى خطره غير ابن الزبير ؛ فهياً جيشاً سيره
نحو العراق للحرب مصعب ؛ وانضم إليه فلول من أصحاب المختار
ابن عبيد ، لا يحملهم على الحرب معه إلا الرغبة في النار من
قاتل صاحبهم ...

والتقى جيش الزبيرين وجيش بني أمية في مسكن ، على نهر
الدجيل ، عند دير الجائلين ؛ ونشبت المعركة ، فشد على مصعب
رجل من أصحاب المختار وهو يقول : بالنار المختار ! وطنه
فأبلته أجله ...

واحتز رأس مصعب وحمل إلى عبد الملك بن مروان في
قلعة الكوفة ...

وشهدت الصورة الرابعة عياناً ، وكنت أراها رأي المتوهم
منذ بضع سنين . ورأيت عبد الملك بن مروان جالساً على كرسيه
وبين يديه الرأس في الطست ...

وكان بين مصعب وعبد الملك مودة حين كانا في المدينة قبل
أن يتزغ بينهما الشيطان . . . وأحسبني رأيت دمة في عين
عبد الملك وهو يقول عززونا وينظر إلى رأس مصعب : « متى
تفدو قريش مثلك ؟ »

وغامت على عيني غائمة ، فقلت ولا أكاد أعي ما تلفظه شفهاى :
« إني رأيت بهذه القلعة رأس الحسين أمام عبيد الله بن زياد ،
ورأس ابن زياد أمام المختار ، ورأس المختار أمام مصعب ، ورأس
مصعب أمام أمير المؤمنين ! .. »

وبلغت كلمتي أذن الأمير ، فسكناً تطير عما سمع ، فأمر
بنقض ببيان القامة ؛ فهي من يومئذ أنقاض بابني !
قال الفتى :

فما يفزعك منها يا أبت وقد سارت إلى ما ترى ؟
قال الشيخ .

— لست أدري بابني ؛ ولكنني أتوقع كلما وقعت عيناي على
أنقاضها أن أحدانا ستحدث في هذا المكان ، وتزدحم على
ذكريات الماضي وصورة الجراء الدامية ...

هل قرأت قصة « الباحث عن السعادة » ؟
هل عرفت ما كان من أمره وما هو كائن وما سيكون ؟
اقرأ هذه القصة الرمزية بين ثنايا كتاب

نهاية الطريق

للأستاذ السيد الدالي

إنها قصص شائقة ممتعة وزبد في سمو أفكارها أنها
مكتوبة بقلم بليغ
مجلة الكتاب
مايو ١٩٤٧

تطلب من دار التوزيع والطباعة والنشر ٥٣ شارع
إبراهيم باشا ومن سائر المكتبات بمصر والشرق العربي
والثمن ١٥ قرشاً